الغزو الفكري الصهيوني في التراث المسيحي

د. مروان فارس

إن عملية الاختراق التي حاول الفكر الصهيوني العبور بها الى التراث المسيحي تعود أساساً إلى الالتباس التاريخي الذي أحدث بين مسألتين غير متلازمتين . فلقد تمّ الايهام عبر مراحل متأخرة من الزمن المسيحي بأن التوراة والانجيل كتابان متصلان يمثلان نهجاً متكاملاً في النظر إلى أمور الماوراء وكل المسائل التي هي على صلة وثيقة بمآل الانسان الفرد في صيرورته .

انطلاقاً من هذا المعطى يصح العنوان الذي يتقدم هذا البحث خاصة وان غزواً فعلياً قد حصل للتراث المسيحي من قبل الفكر الصهيوني في فترات متأخرة من التاريخ الوسيط . وان تجلى هذا الغزو في اعتبار المسيحية استكمالاً لليهودية في أذهان شرائح واسعة من البشرية لدرجة أصبح النقاش فيها ممنوعاً بهذه المسألة ، لا بد في البدء من التساؤل حول هذه المسلّمة . وللتساؤل هذا اسناد طويل وهام على مسافة طويلة من الزمن المسيحي . وان هذا الاسناد يتكىء أساساً على الفصل بين المسيحية واليهودية وكتابيهما من قبل المؤسستين .

وكي يفي البحث بعض غرضه لا بد من تبيان السمات العامة للفكر الصهيوني من ناحية وتلك التي تخص التراث المسيحي من جهة ثانية للتوصل إلى رسم شبكة اختراق الغزو واقتراح البدائل الممكنة للمواجهة في سياق النضال المتعاظم دولياً وعربياً ضد الصهيونية بجميع أشكالها وأدوات سيطرتها .

١) السمات العامة للفكر الصهيوني .

أ) ان الحركة الصهيونية هي حركة عصيان ضد المحور الطبيعي لحركة التاريخ . فهي معاندة ملحوظة للقوانين التي يخضع لها الوجود التاريخي في تظهراته المجتمعية المتعددة وفي نموه وتطوره . « فبينما تنوجد الدولة للتعبير عن مجتمع مما يفرض وجود المجتمع أولاً ومن ثم وجود دولته نلاحظ أن عكس ذلك قد تم فعلاً فيما يختص بالصهيونية وانجازاتها ، اذ أوجدت الدولة أولاً وهي ساعية الان إلى انجاز مشروع المجتمع الموحد الذي قد لا تستطيع على الاطلاق تحقيقه خاصة وان الأمر معاد للسياق التاريخي الصحيح ولقوانين الطبيعة والاجتماع »[1] .

إن هذه المواصفة الأولى تتأكد على امتداد قرون طويلة من الزمن تعود لجوهر الوصية التوراتية التي أتى بها معظم الأنبياء اليهود في دعواهم المستمرة لمنع جماعاتهم من الانخراط في المسار الطبيعي لحركة التاريخ والمجتمع . ويرى المؤرخ الفرنسي جاك ـ هنري بيريك ذلك على ما يلي :

« إن تاريخ الشعب اليهودي يسيطر عليه الصراع بين الملوك الذين حاولوا دمج فلسطين في سياق الحياة الدولية والأنبياء الذين ، خوفاً من عدوى الأفكار الدينية الغربية ، حاولوا اغلاقها بوجه كل تأثير خارجي ، بوجه كل حياة اقتصادية ، كل ذلك للحفاظ على الشعب اليهودي مجتمعاً كطائفة من الفلاحين متحلقين حول إله لهم منفرد هو يهوه »[2] .

سمة التمييز والانفراد هذه هي التي انتصرت في مسار الصراع . ولغة الأنبياء التي انتصرت في حلبة الصراع مع الملوك لا تزال منتصرة في تحول الملوك إلى أنبياء مع رئيس الحكومة الصهيونية الحالي مناحيم بيغن الذي لا يعترف الا بلغة الأنبياء لغة له ولسياسته التي ترتسم توراتياً كل يوم .

ب) إن هذا الرجل يحسم كثيراً من الجدل حول الهامش بين اليهودية والصهيونية فتتجلى الصهيونية كقضية قومية لليهودية . ما يضفي على الصهيونية صفة اقتصادية سياسية اجتماعية متمحورة حول أرض فلسطين . فالقضية القومية معنية بأن تقوم على أرض والجماعة البشرية معنية بأن تتفاعل مع هذه الأرض .

ولما كانت اليهودية لا تقوم كدين دون قيام الأرض « أرض الميعاد » التي تدعو اليها . وكون الدين لا يتحقق إلاّ على هذه الأرض بالذات ، أرض فلسطين ، فانه هنا بالتحديد صهيوني أو بكلام آخر عدواني استيطاني » .

ديفيس تريتش ۱۸۷۰ ـ ۱۹۳٥ اليهودي الالماني والصهيوني المتحمس نادى بمشروع فلسطين الكبرى التي تضم بـرأيه فلسطين المعروفة وقبرص وسيناء وكان من أنشط الصهيونيين في بثّ المعلومات عن جغرافية « فلسطين الكبرى » التي نادى بها من خلال المجلات والنشرات التي قام باعدادها ونشرها . وقد تركز نشاطه منذ أن حضر المؤتمر الصهيوني الأول ، في محاولات شتى ، رمى منها إلى حمل الحركة الصهيونية على تبني مفهومه الخاص عن « فلسطين الكبرى » . ففي ۲۹ تشرين الأول ۱۸۹۹ كتب الى هرتزل يقول : « اقترح عليك ان تنظر باهتمام إلى برنامج (فلسطين الكبرى) قبل فوات الأوان . وينبغي أن يتضمن برنامج بال عبارة (فلسطين الكبرى) ، أو (فلسطين والبلاد المجاورة لها) . فليس في وسعكم أن تحشروا عشرة ملايين يهودي في رقعة من الأرض ، لا تتجاوز مساحتها ۲٥ ألف كيلومتر مربع »[٣] .

« أرض الميعاد » هذه جزء أساسي من الدعوة الدينية . ولما كانت هذه الدعوة عدوانية فان حدود هذه الأرض غير دقيقة فهي تارة من الفرات إلى النيل وتارة حيث يتحقق أمن اسرائيل وطوراً ممتدة حسب استراتيجية شارون إلى الباكستان .

لكن الاثبت في هذا المجال والمرجح هو تلك الحدود التي يرسمها عام ۱۹۱۸ بن غوريون وبن زفي في نشرة « فلسطين » الصادرة عن « لجنة فلسطين البريطانية » ، انها تمتد من جبل لبنان شمالاً وبادية الشام شرقاً إلى شبه جزيرة سيناء جنوباً والبحر الأبيض المتوسط غرباً .

باختصار ان فلسطين كما وردت في التوراة لا تزال أرض الميعاد للشعب اليهودي . وفي الاحتلال « تتحقق رؤ يا أنبياء اسرائيل » ، كما ورد على لسان بن غوريون في خطابه بالضباط المتخرجين في ۷ حزيران ۱۹٤۹ . وهكذا تصحّ عبارة ماكس نوردو الساعد الأيمن لهرتزل : « اليهودية ، اما أن تكـون صهيونية أو لا تكون » .

ج) إن الصهيونية ظاهرة استعمارية لجهة نشوئها في سياق التكوّن الاستعماري وهي مستعمرة لجهة علاقتها بالتكون الديني . وأبرز شاهد على هذه الحقيقة [illegible] توراة وخاصة تلك التي لأشعياء ، يقول الرب مخاطباً شعب[illegible]ختار :

« ترضعون وعلى الأيدي تحملون ، وعلى الركبتين تدللون ـ سفر أشعياء ٢٢/٦٦ » . أو « ويقف الأجـانب ويرعـون غنمكم . ويكون بنو الغريب حرّاثيكم وكرّاميكم . أما أنتم فتدعون كهنة الرب . تأكلون ثروة الأمم ، وعلى مجدهم تتآمرون . أشعياء ٥/٦١ » . وقال الرب لاسرائيل « بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك ، ويلحسون غبار رجليـك ـ سفـر أشعياء ٤٩ / ٢٢ » .

هذه الأقوال الواردة في التوراة تشير إلى الطبيعة الخاصة بما يسمى « شعب الله المختار » الذي له بحكم هذا الامتياز الذي تقرره الخرافة حق استعباد الشعوب والسيطرة على خيراتها وثرواتها . ففي الاساس الديني اذن منطلق استعماري مبرر أخلاقياً خاصة وأن اليهودية تعتبر نفسها بهذا النموذج من القرارات الدينية صاحبة « وصايا أخلاقية عظيمة » على حد قول بن غوريون .

من هنا يمكن استنتاج بعض الملاحظات الخاصة بالطبيعة العدوانية للصهيونية وما تحمله من زخم هائل يعود لارتكازها الى اللاوعي التاريخي المتكون والمتراكم دينياً . كما يعود إلى مفاهيم اكتسبت بحكم الانغلاق عليها واعتبارها « تؤدي رسالة رائدة » (بن غوريون) ، نمطاً من الثبات الذهني عليه أن يتحقق في واقع التطور التاريخي .

وعلى هذا الاساس فان ترافق الظاهرة الصهيونيـة مع الظاهرة الاستعمارية الحديثة لا يبدو مستغرباً ، فلقد حضنت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة أعظم دولتين استعماريتين مشروع الحركة الصهيونية وحملتاه رويداً رويداً إلى التحقق . واذا كان للاستعمار القديم مصلحة بنشوء الدولة الصهيونية لتأمين جسر له في عبوره إلى مستعمراته في الهند فان الامبريالية لها نفس المصلحة بوجود هذه الدولة على شريان النفط العربي الذي يشكل في هذه المرحلة من الزمن مصدراً للطاقة أساسياً لبقاء الهيمنة الامبريالية واستمرارها .

ولكنه انسجاماً مع المعطى التوراتي فان المشروع الصهيوني لا يعمل فقط لحساب الاستعمار انما يتحول بحكم بنيته إلى مشروع استعماري لحسابه الخاص لأنه على اليهود ، كما يقول أشعياء أن يأكلوا ثروة الأمم « وعلى مجدهم يتآمرون » .

إن الداعين لبناء الدولة الصهيونية هم الصهاينة أنفسهم وان كان الاستعمار البريطاني يفكر بالأمر ويسعى إليه منذ مطلع القرن السابع عشر . إن عدم انصهارهم في المجتمعات التي تواجدوا فيها بناء على دعوة أنبيائهم قادهم إلى حل المشكلة اليهودية بحل مشكلتهم الدينية . فكان الحافز الديني وراء

العدوان وكانت نزعة السيطرة والاستغلال وراء الاستيطان والتوسع . ما يؤكد على ارتباط المشروع الصهيوني بالاستعمار من جهة وبذاته من جهة أخرى ، وعلى سعيه للاستقلالية لاقامة دولته الكاملة على أرض ميعاده الكاملة فتنشأ دولة استعمارية كبرى في المنطقة .

إن اعتبار الصهيونية قضية اليهودية القومية ينهي جدل التحديدات الأحادية الجانب ويعبّر عن حقيقة الحركة الصهيونية وواقعها بجميع جوانبه المركّبة متيحاً بذلك وضع استراتيجية متكاملة للنضال ضدها . فالتاريخ اليهودي الذي تتكىء اليه كان وما يزال مقدمة لفعاليتها التاريخية بانتصاره خاصة في الغرب على حساب التراث المسيحي الذي له سمات متعارضة مع تلك التي سبق ذكرها .

٢) مع السمات الخاصة بالتراث المسيحي

إن اعتراف ملك أنطاكيا عام ١٤٢ قبل الميلاد بمملكة القدس أدى إلى انفتاح هذه المملكة للأفكار القادمة من الخارج وخاصة تلك المتصلة بالحياة الأبدية ، بالعقاب والثواب ، بالجنة والجحيم ، بثنائية الخير والشر وبفكرة القيامة وفكرة مجيء المسيح . وان هذه القناعات التي كانت سائدة في كل المناطق السورية كغيرها من القناعات التوحيدية حسب أغلب المؤرخين تشير إلى صلة المسيحية بجوهرها بالانجازات الحضارية التى أتى اليهود اليها متأخرين والتي هي نتاج التفاعلات الهامة الحاصلة في أطر منفتحة . ففي الاساس يتضح الارتباط المسيحي بالتراث السوري القديم الذي أخذت اليهودية منه متأخرة . وتتضح معالم المسيحية متمايزة شديدة التمايز عن اليهودية ومتناقضة معها شديد التناقض .

أ)لقد ولد المسيح في مكان متواضع من فلسطين وتعمّد على يدي يوحنا الذي كان يبشر باقتراب موعد مجيء مملكة السماء . منذ البداية اتسمت رسالة المسيح بطابعها السماوي دون الأرضي . « ان مملكتي ليست من هذا العالم » . « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . في هذه الأقوال ايضاح للفصل التام بين الدين والدولة ، بين الأرض والسماء . وعظة الجبل التي حددت أطر المناقبية المسيحية تدعو دون أي التباس المساكين بالروح والرحماء والمساكين والجائعين والمتعطشين للعدل للفرح لأن لهؤلاء ملكوت السموات .

إن هذه الدعوة تتناقض في الجوهر مع الدين اليهودي الذي لا يكتمل إلا في « أرض الميعاد » ، واذ تنبري المسيحية رسالة سماوية ، تتبين معالم اليهودية بوضوح كرسالة أرضية . وتبتعد الأخلاق المسيحية بعداً كبيراً عن الأخلاق اليهودية المنغلقة لتتصل بالارث العالمي فلا تدّعي الهيمنة على المؤسسات البشرية التي ترعى شؤون الاجتماع البشري ويظهر بجلاء اعتبار المسيح للأخلاق وللدين كمسائل فردية خاصة واعتباره الفضيلة أمراً يعود للضمير وليس للجماعة . في محيطه التجاري يدعو الانسان لاعطاء ما هو روحي أولوية بالنسبة للضمير الفردي . ويبيّن البعد الإلهي الخارج عن المواصفات والقواعد التي وضعت الألوهة في شبكاتها الدوغماتية .

هذه الرسالة السماوية بابتعادها عن الأرض تدعو الناس على الأرض الى المحبة والتسامح وحل المشاكل سلمياً كقاعدة أساسية للفصل في الاشتباكات الممكنة . وهنا يبرز الوجه المناقض لليهودية بدعواها لتملك الأرض بالقوة والسيطرة على خيرات الشعوب .

في السلم الأخلاقي وفي أساس الدعوة اذن افتراق من خلاله يفهم قول المسيح : « بنقض الناموس » وهو يقصد الناموس اليهودي ليحل محله ناموس جديد يهتدي به المؤمنون به .

ب) نتيجة ذلك لقي صوت المسيح دويّاً هائلاً في العالم كله وامتدت دعوته على أيدي رسله الى أطراف الأرض . وذلك لأن شعوب الأرض لم تجد فيها رسالة للأرض وللصراع على تملكها بل رسالة للوصول إلى عالم الروح الذي يتم الوصول اليه بفعل الخير . وبينما انحصرت اليهودية كدين لشعب واحد هو « شعب الله المختار » يمتاز عن غيره بالعنصر ، اتسعت المسيحية لتطال العدد الغفير من شعوب الأرض لأنها أعلنت المساواة بين هذه الشعوب وبين أفرادها . اتسعت المسيحية لأنها أتت بحصيلة جهد أخلاقي يعود تاريخه الى ثلاثة آلاف من السنوات ابتدأ في مصر بأعمال الرحمة والتسامح . ولأن القانون اليهودي كان يفرض شريعة دوغماتية حكم على المسيح بالموت وبالرغم من نصائح التسامح التي أسداها الوثني الروماني بيلاطس لليهود نفذ حكم الاعدام به على الصليب وصلب . ما يظهر البون الشاسع في السلم الأخلاقي ليس فقط بين المسيحية واليهودية أما أيضاً بين هذه الأخيرة والوثنية المشبعة بالمدّ الحضاري السوري الاغريقي القديم والمتقدم .

إن قتل المسيح يحمل دلالات هامة ليس أقلها الاعتداء على كل أولئك الرجال ذوي النوايا الطيبة الذين دعاهم إلى الايمان والأمل والمحبة . ولذلك كان انتصاره بعد استشهاده ادانة صارخة من قبل البشرية جمعاء لليهود ولشريعتهم غير المتسامحة الآمرة بالقتل لداعية سلام ومحبة . بقتل المسيح ثم قتل فكرة الفداء الإلهي ، ثم سقوط اليهودية بمواجهتها للرسالة الجديدة

تماماً كما سقطت في معركتها مع الحضارة اليونانية التي اعتبرتها مجحفة غير متسامحة . واذ تتابعت الحملة بعد المسيح على أتباعه ذهبوا في الأرض وحسم بولس الرسول مع اليهودية لجهة الختان والأوهام الغذائية ومع ما أثر بالمسيحية من طابع يهودي لتظهر كرسالة كونية فتأسست في انطاكية أول كنيسة مسيحية ومن ثم في قبرص وفي آسيا الصغرى وفي تسالونيا ، وكورنتوس وأفسس ، في عواصم الشرق المتفاعل مع الحضارة اليونانية والرومانية بينما بقيت اليهودية لليهود تنغلق بانغلاقهم حيثما حلّوا . بذلك تأخذ المسيحية سمة الانفتاح والتفاعل مع كل شعوب الأرض بينما تبقى اليهودية متسمة بالانغلاق والتعصب لشعب واحد متعال على غيره من الشعوب .

ج) إن القمع الذي جوبه به اليهود خلال انتفاضة أعوام ١٣٢ ـ ١٣٦ أدى إلى تفرقهم في الشتات وانغلاقهم في غيتوات متمايزة شديدة التمايز عن محيطها . بينما أدى اضطهاد المسيحيين من قبل الاباطرة الرومان إلى تحوّل هؤلاء الأباطرة إلى مسيحيين فيما بعد وانتصار المسيحية كديانة توحيد على وثنيتهم . هذه الديانة تحولت إلى مؤسسة ناهضة خاصة في الشرق حيث اضطلعت بمهام ديمقراطية بارزة بوجه الممارسة الامبراطورية القمعية . فلعبت بذلك الكنيسة المحلية المشرقية دوراً معبراً عن النمط السياسي السائد في البلاد بوجه النمط العسكري المفروض عليه . فبوجه نظرية سيطرة الدولة ومؤسستها انتصرت الكنيسة للفرد لجهة انتخابه ممثله الديني (المطران) ودور هذا في أداء العدالة بين المؤمنين . بذلك أخذت الكنيسة طابع الحياة السياسية السائدة في تقاليد التراث السوري وبقيت مستمرة فترة طويلة في الشرق على هذا النهج بينما اتسمت في الغرب بطابع النمط السياسي السائد ذي الوجه السلطوي فقامت حروب التحرر بوجهها ووجه أدواتها دون أن تعرف نماذج مشابهة لذلك في الشرق .

وعلى السواء في الجهتين برهنت الكنيسة عن كونها قوة عظمى في المجال الفكري اذ استوعبت الفلسفة القديمة وجددتها بمنطلقاتها الأساسية مشكّلة بذلك تراثاً غنيّاً فيه من انجازات الشرق ما فيه، وفيه من معطيات الغرب ما فيه . مما أفسح في المجال أمام الاجتهاد الكبير والاغناء والتكثيف . لكنه نتيجة لهذا الانفتاح واتساعه لاحتواء التجارب البشرية المتعددة حاولت اليهودية كما فعلت مع الاغريقية والصهيونية بالتالي العبور إلى هذا التراث الرحب فاخترقته خاصة في الغرب حيث استطاعت تسجيل نجاحات ملحوظة .

٣) سمات الاختراق الصهيوني

إن حصر الاختراقات الصهيونية للتراث المسيحي أمر يحتاج وقتاً طويلاً وعناية خاصة . لكنه من الممكن التوقف أمام بعض السمات الأساسية للفكر اليهودي ـ الصهيوني في محاولته العبور إلى المسيحية بتراثها المتعدد الجوانب والكثير الخصوبة .

أ) لقد التبست العلاقة بين اليهودية والمسيحية منذ البدء لدى بعض تلامذة المسيح بشكل خاص لدى بطرس الرسول الذي كان داعية للاحتفاظ ببعض التقاليد اليهودية كالختان وببعض المحرمات الغذائية وما إلى ذلك من أشكال ومظاهر خارجية لا علاقة لها بالجوهر الروحاني للمسيحية . ومنذ البداية وضع بولس الرسول حدّاً لهذا الالتباس وحسم الخلاف بين بطرس وبولس لصالح الأخير للبون الشاسع في الثقافة بين الرجلين . ومنذ عام ١٨٠ وتأسيس مدرسة الاسكندرية وظهور المسيحية كتتويج للفلسفة القديمة ، حصل الانفصال التام عن اليهودية وتم الانتشار المسيحي على القواعد التي أعطاها لنفسه أو اكتسبها بتفاعله مع الشعوب وحضاراتها المختلفة .

ب) ان الفصل بين المسيحية والامبراطوريات يعني فصل الدين عن الدولة الذي لعب فيه الاغريقي اغسطينوس دوراً بارزاً حال دون انهيار المسيحية مع انهيار الامبراطورية . بذلك حصل عكس ما وقعت به اليهودية التي كانت تنهار بانهيار دولتها . وفي فترات هذا الانهيار الطويلة حاولت أن تفعل بغيرها أيديولوجياً فتكررت مع المسيحية التجربة الاغريقية ففشلت في أمكنة ونجحت في أخرى .

ج) احدى هذه النجاحات الكبرى تتمثل في استطاعة اليهود وخاصة بعد تغلغلهم الكثيف في جهاز الكنيسة الرومانية ، فرض التوراة كعهد قديم واعتبار الانجيل بالتالي عهداً جديداً باحتواء الكتاب المقدس على العهدين معاً .

بهذا الاختراق استطاعت اليهودية أن تعيد ما انقطع من صلة مع المسيحية في القرنين الأول والثاني فالتصق التراث المسيحي بالتراث اليهودي التصاقاً دينياً وطقسياً لدرجة أصبح فيها تاريخ اليهود معروفاً لدى الشعوب المسيحية أكثر من تاريخ هذه الشعوب نفسها . وليس أدلّ على ذلك من تصريح لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا اذ قال :

« لقد تربيت في مدرسة تعلمت فيها عن تاريخ اليهود أكثر بكثير مما تعلمته من تاريخ بلادي ، وفي وسعي أن أخبركم بجميع ملوك اسرائيل ، ولكني أشك في مقدرتي على أن أسمّي لكم ستة من ملوك انكلترا . لقد تشبعنا كل التشبع بتاريخ الجنس العبري »[٤] .

عبر التوراة اذن استطاعت اليهودية كأساس قوي للصهيونية أن تدخل إلى عقل كل مسيحي في تربيته الدينية في العائلة والمدرسة . كما استطاعت عبر الطقوس الكنسية بأناشيدها وأسرارها ورهبتها أن تؤثر على اللاوعي الفردي لدرجة طالت فيها كل البنية الفردية .

هذه الأمور جميعها تفسر التأييد الهام الذي لقيته الصهيونية في الغرب في دعواها للعودة إلى فلسطين « أرض الميعاد » . ففلسطين هي بالنسبة للأغلبية الساحقة من المسيحيين الغربيين أرض الميعاد لا يشكون بالأمر لأنه يواكب تربيتهم العميقة عبر الأجيال والعصور المتلاحقة .

ولقد حاول الغرب كثيراً تبرير موقفه من الصهيونية على قاعدة الاضطهاد الذي نال اليهود من قبل النازية ، وذلك ليظهر هذا الموقف منطلقاً من حوافز انسانية لا غير . إن في المسألة تبسيطاً غير مقنع خاصة وان الغرب المسيحي بجناحيه الكاثوليكي والبروتستانتي ينطلق في مساندته للصهيونية من اعتباره اليهودية أساساً ومنطلقاً لجوهر ديانته .

في هذا المجال يتميز موقف مسيحيي الشرق لعدة أسباب أهمها ان كنيسة الشرق كانت أدرى باليهودية كونها كانت تعرف الأساس الأول لسلّم القيم الذي تبنّته من محيطها دون أن يكون لليهودية . وان هذه الكنيسة وان تأثرت قبل الانشقاق عن الغرب بالتوراة واستعادت الكثير من صوره واحداثه وملامحه في طقوسها بقيت حذرة للغاية من العهد القديم . وهذا الحذر يتمثل في اجتزاء بعضه ومنع التداول ببعضه الآخر في المعابد والأديرة وتغطية أقسام منه بالصفائح السوداء . وموقف الكنيسة الشرقية من الصهيونية موقفاً حازماً يعود بالاساس لموقفها الحذر من التاريخ اليهودي واعتباره تاريخاً مقدساً .

د) إن هذا التاريخ نفذ إلى التراث المسيحي عبر التوراة وعبر المدرسة خاصة وأن الصهيونية اعتمدت بشكل أساسي على حقل التربية والتعليم ان في تنشئة جماعتها وان في تنشئة الجماعات المسيحية الأخرى .

« كنت ـ يقول موشيه منوحن ـ من خريجي عام ١٩١٣ في معهد هرتزليا في يافا . هذا المعهد كان المهد الذي ترعرع فيه ما سمّي بالقومية اليهودية . . . إن ما أذهلني خلال تلك الفترة هو ما كان يتسرب إلى أذهاننا من خلال التعليم . اذ كان هناك بيت شعر معين يحشر في الدروس ويلقن لنا بمناسبة وغير مناسبة . . . كانوا يلقوننا « عمينو » أي أمتنا ، « أرتسينو » أي أرضنا ، « مولادتينو » أي وطننا ومسقط رأسنا . . . . وكانوا يتوخون من هذا الوعظ المتكرر تسميم أفكارنا لننقلب إلى يهود قوميين . حتى أصبح الجمنازيوم الذي تخرجت منه بؤرة للأفكار القومية السياسية المتطرفة المجنونة »[٥] .

عبر المدرسة الصهيونية التي تعلم فيها موشيه منوحن والمدرسة المسيحية التي درس فيها لويد جورج زرع المبدأ الصهيوني والفكر الصهيوني في عقول الناشئة اليهود والمسيحيين الغربيين على السواء . وان عدم التمايز في النشأة أدى إلى عدم التمايز في الموقف طالما بقيت الحقائق مندثرة في بطون التاريخ دون كشف علمي وموضوعي لها .

هـ) على هامش المدرسة دخل الفكر الصهيوني الى التراث المسيحي بواسطة عملية الاستقطاب الهائلة للكتاب والمفكرين المتشربين بالتراث الصهيوني فقاد هؤلاء حملات التحمس للكيان الصهيوني وللخطة الصهيونية عن الصهيونيين أنفسهم . مما أعطى لهذه الخطة مصداقية أكبر تجاه المتوجسين من اجراء تغيير في خريطة المنطقة . ولقد وصل الأمر إلى حدّ ألقى فيه أحد أبرز مفكري الاسبانية جورج لويس بورخيس محاضرة في الارجنتين قال فيها :

« ان اسرائيل تشكل جزءاً عميقاً منا جميعاً وأشد عمقاً من الانتساب برابطة الدم أو التحدر العنصري . . . لقد رافقتني اسرائيل دوماً منذ كانت جدتي الانكليزية تقرأ عليّ التوراة . أعني أنني كنت دوماً متشبعاً باسرائيل »[٦] .

و) هذا التشبع أتى أيضاً عن طريق الصحف والمجلات والاذاعات الصهيونية المباشرة أم المتصهينة أم المتأثرة بالحركة الصهيونية . واذ ركزت الصهيونية جهداً كبيراً في هذا المجال عرفت كيف تنشىء أجهزتها الدعائية الايديولوجية الخاصة كما عرفت بشكل أفضل تشغيل المؤمنين بأ عواها التوراتية لخدمة دعواها الصهيونية . ويعبر عن ذلك الأب فورست بقوله : « أعتقد أنني في عدائي للعرب كنت صورة عن الغربيين قارئي الصحف والمجلات الذين يؤمنون بالكنيسة وتعاليمها عن حسن نية . فكان لديّ نزعاتي الموالية لاسرائيل والمناهضة للعرب . فاليهود كانوا برأيي شعب الله المختار والقدس مدينتهم المقدسة وفلسطين أرضهم . وبدا لي واضحاً أن اليهود بعد قرون من النفي والتشرد ، استطاعوا العودة إلى أرض آبائهم . . . لقد ورثت هذه الأفكار من تربيتي في البيت والكنيسة ومدرسة يوم الأحد »[٧] .

ز) لقد لعب المسيحيون المتصهينون دوراً كبيراً في الدعاية للصهيونية بأهدافها ومطامعها أفراداً ومؤسسات . والأمثلة على ذلك متعددة ليس أقلها « لجنة فلسطين البريطانية » وغيرها من المؤسسات والمؤتمرات المنعقدة في أوروبا الغربية وأميركا

اللاتينية والولايات المتحدة بشكل خاص . لقد قاتل الصهاينة بأسلحة الفكر الديني والسياسي والأدبي والاعلامي قتالاً دون حدود واستغلوا الكنائس والجمعيات والنوادي والطوائف في سبيل غرس مفاهيمهم وتعميقها بغية اقناع العالم بصحة دعواهم .

ح) أكثر من ذلك فلقد أنشأوا طوائف أو نشأت شيع كالانجيليين والسبتيين وشهود يهوه والمتجددين وشيع البروتستانتية والتي باعتمادها الأساسي على التوراة كادت أن تنسى الأنجيل . فتمّ بذلك الانحراف الخطير من المسيحية إلى اليهودية بعد انزلاق المسيحية الى كنف اليهودية . وان الحروب الدينية المهلكة التي حصلت داخل الكنيسة المسيحية دارت بجزء منها تحت شعار الدور الذي يجب أن تلعبه التوراة في الحياة الدينية المسيحية ، حتى تغلبت لدى بعض الفرق البروتستانتية على الانجيل . ما يعني تغلب العهد القديم على العهد الجديد والحاق الجديد بالقديم بدل السياق السابق بالحاق القديم بالجديد .

ط) ولم ينج بعض الفكر العربي من الوقوع في تلك الدعوات الصهيونية المستترة بستار اليهودية وموقف المسيحية المشرقية والمحمدية المتسامح معها ، فاستغلت هذه الوسيلة أيضاً للوصول إلى غاياتها بالكتب والمنشورات والاعلام وما إلى ذلك .

في المحصلة نستطيع الاستنتاج بأن غزواً حقيقياً حصل للتراث المسيحي من قبل الفكر اليهودي- الصهيوني عبر بوابة اعتماد التوراة في صلب الكتاب المسيحي المقدس . وهذا الغزو حقق نجاحات عديدة في أميركا اللاتينية التي شكلت « لجان نصرة فلسطين » برموزها وشخصياتها المسيحية الكبيرة . كما حقق نجاحات هائلة في الغرب الأوروبي الذي أنشأ دولة اسرائيل بموجب وعد بلفور ومعاهدة سايكس بيكو والانتداب البريطاني على فلسطين . واننا نراه بقوة في الدعم الذي لا حدود له من قبل الولايات المتحدة لدولة الصهيونية عبر « المؤتمر الدولي المسيحي لنصرة فلسطين » المنعقد عام ١٩٤٥ في واشنطن وعبر الطائرات الامريكية المخيفة التي تخوض حروباً صليبية جديدة ضد شعبنا في نهاية القرن العشرين . لقد غزا الصهاينة الفكر الغربي وسيطروا عليه ولا يزالون يمارسون سيطرتهم هذه بثبات ليس من السهل زعزعته .

٤) وسائل المواجهة

أمام هذا الواقع يتعيّن علينا خوض معركة مواجهة محتدمة مع هذه المعطيات الاساسية وفي ذات الملعب الذي تدفع الصهيونية بقوتها عليه . وان النجاح في هذا المجال ليس مستبعداً وان اقتضى كثيراً من الصبر نتيجة للغفلة التاريخية عن الأخذ بأسباب المواجهة . ذلك لأن الخطة النظامية الصهيونية الدقيقة لا بد وأن تواجه بخطة نظامية قومية أدقّ . وأسباب النجاح عديدة ومهيأة لاتّسام حضارتنا العربية بسمة الانفتاح التي هي سمة المسيحية ذاتها . فعلى قاعدة الاشتراك في التوجه الحضاري يمكن مقاومة التناقض مع الحضارة .

أ) في البداية لا بد من كشف الحقائق التي خضعت لعملية تزوير هائلة في التاريخ . والحقيقة الأولى في هذا المجال تتمثل في اعادة التاريخ اليهودي إلى حجمه التاريخي دون اعتباره كتاباً مقدساً أم بالأحرى جزءاً أساسياً من الرسالة المسيحية .

ب) إن الكنيسة الشرقية على وجه التخصيص معنية بخوض هذه المعركة الهامة التي بنتيجتها يعود للمسيحية البريق الذي هو لها . انها معنية بأن تلعب دور بولس الرسول بالنسبة لما ألحق بها من تاريخ لا علاقة لها به ، وباعتمادها هذا المسار تضع الغرب المسيحي أمام مسؤولياته التاريخية بالكشف عن حقيقة العملية القيصرية التي أجريت لحركة التاريخ .

ج) ان معاهد الابحاث والدراسات العربية الغفيرة والمتواجدة في مجمل الاقطار العربية مطالبة بأن تلقي الضوء بقوة على مسألة الغزو الصهيوني للتراث المسيحي وتقديم النتائج العلمية الدقيقة للغرب الذي ليس باستطاعته بحكم تربيته التاريخية أن يكون على ذات السوية في التجرد على هذا الصعيد .

د) يقتضي عقد مؤتمرات في كل بلدان الغرب للمتنورين من المسيحيين وللجان دعم نضال الشعب الفلسطيني لنقاش موضوع حق الشعب الفلسطيني بالعودة إلى وطنه . ما يقود إلى نقاش مسألة الحقوق التاريخية وفصلها عمّا يسمى بحقوق دينية ، وان ايجاد حركة من هذا النوع سيكون بمثابة كرة الثلج التي تكبر بحكم سقوطها خاصة وان العقل الغربي يتسم بسمة البحث عن الحقائق والتدقيق بالمعطيات على قاعدة تحكيم العقل بجميع المسلّمات . المهم في هذا الوقت هو توظيف الامكانات العربية الهائلة لاستثارة البحث في هذ المجال .

هـ) إن خوض معركة الاعلام والمدرسة ليس أمراً متعذراً على الحضارة العربية ولا على الامكانات المتوفرة راهناً . ما يقتضي تحولاً أساسياً في خطط الجامعة العربية في هذه المرحلة لجهة عملها لكسب الرأي العام المسيحي الغربي على قاعدة انفتاحه على الحضارات وعلى قاعدة انفتاح الحضارة العربية

عليه . لقد حصل تقصير كبير في هذا المجال ولكنه يمكن اختصار الوقت بفضل ما يتوفر من زخم حضاري وقوى مادية ومعنوية كبيرة في مختلف الأقطار العربية .

في النهاية لا بد من الاقرار بأن غزواً صهيونياً حقيقياً وقوياً في رسوخه قد عبر الى بنية التراث المسيحي . واذ تمثل هذا الغزو في التوصل لتبرئة اليهود من قتل المسيح فانه يتتابع في التسامح الغربي اللامحدود بقبول استلاب الحقوق والأرض والانسان في فلسطين ، ما يتناقض مع جوهر المناقبية المسيحية ودعواها القائمة على المحبة ، ما يضع البشرية في الربع الأخير من القرن العشرين أمام تساؤلات حادة حول حجم التشويه الصهيوني الذي طال سلّم قيمها الاساسي الذي يعود لألوف من السنوات ، ما يحفزنا نحن لخوض معركتنا مع الصهيونية ليس بأسمنا فقط انما باسم البشرية جمعاء .

---

(١) مقالات في المنهج ـ للكاتب ـ منشورات مجلة فكر ـ بيروت ١٩٨٠ .
(٢)
(٣) سقوط الامبراطورية الاسرائيلية ـ د . جورجي كنعان ـ دار الطليعة ١٩٨٠ .
(٤ ـ ٥) أمجاد اسرائيل ـ د . جورجي كنعان ـ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٨ .
(٦ ـ ٧) المصدر السابق .

مؤلفـات الدكتور سهيل ادريس

في طبعة جديدة

روايـات

- الحيّ اللاتيني (الطبعة الثامنة)
- الخندق الغميق (الطبعة الرابعة)
- أصابعنا التي تحترق (الطبعة الخامسة)

قصص

- أقاصيص أولى (الطبعة الثانية)
- أقاصيص ثانية (الطبعة الثانية)

آفاق « الآداب »

- في معترك القومية والحرية (ط ٢)
- مواقف وقضايا أدبية (ط ٢)

مترجمات (صدرت أخيراً)

- الطاعون ـ لألبير كامو
- الثلج يشتعل ـ لريجيس دوبريه
- من أكون في اعتقادكم ـ لروجيه غارودي